

رحلة إلى قسنا للمرة الأولى

أشرفت عبقرية الفتى « بيتهوفن » وبدأ سنها يتلأأ في سماء الفن ، فنوه بها الشريف « فالدشتين » إلى الأمير المطران ، وتمنى لو تفضل الأمير فأحاطها بما يكفل ازدهارها فأمر أن يبعث به في رحلة إلى « فينا » فرحل إليها في ربيع عام ١٧٨٧ وقد جاوز السادسة عشرة من عمره . كان ذلك لأن عاصمة القيصرية النمساوية كانت إذ ذاك المدرسة العالية للفن الموسيقى يتألق في سمائها نجوم ثلاثة هم « جلوك » و « هايدن » و « موتسارت »

غادر الفتى مدينة « بون » فتحطمت في تلك اللحظة سلاسل استعباده المنزلى ، وتخلص من أغلال تحكم أبيه ، واتخذ سبيله بحراً في بلاد « الرين » الجميلة في مهربى « الرين » و « الماين » يزامله أمل يرتسم في صفائه كل معانى ازدهار المستقبل ، وما كان أسعد نفسه كلما اقترب من تحقيق رجائه في المقام في موطن الفن وبين أعلامه .

وصل « بيتهوفن » مدينة « فينا » فخلب إليه ما رآها عليه من ضخامة وعظمة لأعهد له بهما من قبل . كان عدد سكانها وقتئذ يربى على ربع المليون نسمة وقد طبعت المدينة بطابع دولى ، يغدو الأجانب فيها ويروحون في أزيائهم الوطنية . وكذلك كانت « فينا » مركزاً للموسيقى ، تنتشر في أرجائها دور

اللهو على اختلاف أنواعها ، وكانت الطبقة الراقية فيها مدللة في السماع لا يرهفون آذانهم إلى لسماع أرقى صنوف النتاج الموسيقى مما كان يتتدعه لهم « جلوك » و « هايدن » و « موتسارت » وغيرهم من أعلام الفن المقيمين في « فيينا » من ألمان وإيطاليين

زود النبيل « فالدهشتاين » وهو نساوى ، الشاب « بيتهوفن » برسائل كريمة يوصى به طائفة من علية الأكابر فتفتحت له بعض أبواب بيوت الأشراف ومهدت له إليها السبل .

ولقد قصد إلى الرجل الذى كان موضع إجلاله وإكباره وكان لفنه فى قلبه مكان الروعة والتقدیس ، ذلك هو « موتسارت » الذى كانت أوبراه « زواج الفيجارو » تغزو حينذاك جميع مسارح المدن الكبرى فى ألمانيا والنمسا .

دخل « بيتهوفن » الغرفة على « موتسارت » صبيغاً فى مقتبل العمر وفى وجهه أثر الجدري فأشبع ناظره منه ثم قال له فى حياء :

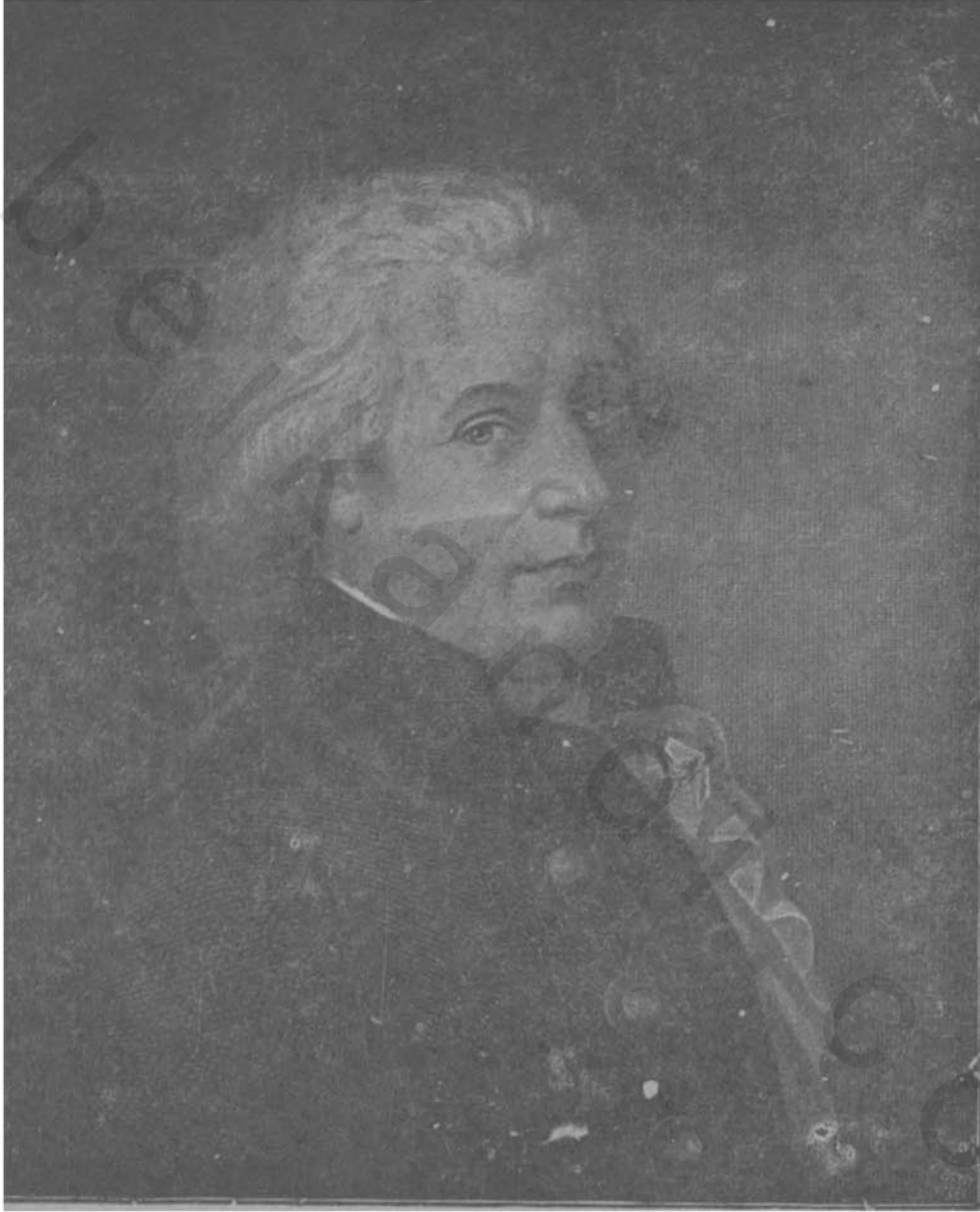
— أى أستاذى ، إننى قادم من مدينة « بون » حيث أعزف فيها بالأرغن فى فرقة الأمير ، وما كدت أصل إلى « فيينا » . . .

فقاطعه « موتسارت » بقوله :

— هل أنت عازف بالأرغن حقاً ؟ إنك لا تزال صبيغاً .

— لقد بلغت السادسة عشرة والسكنى فى حاجة إلى ازدياد تعليمى

حتى أكتسب ما يقوم بأود والدى وإخوتى .



« مونتسارت » ، استاذ « بيتروفين »

هنالك طلب « موتسارت » إلى الشاب « بيتهوفن » أن يسمعه شيئاً على البيانو ، فجلس إلى الآلة ، وأخذ يبتدع عليها ألحانا مرتجلة كانت غاية في السمو ونهاية في السحر .

وإذ انتهى من عزفه وجه « موتسارت » إليه كلمة ثناء خالها « بيتهوفن » ضرباً من المجاملة ، ذلك بأن « موتسارت » اعتقد أن بيتهوفن كان قد أعد هذه الألحان من قبل فشرع يعرضها عليه كأنها إلهام هبط عليه ، فلما تنبه « بيتهوفن » إلى ذلك طلب إلى أستاذه الموسيقار أن يختار له موضوعاً ، وأن يعطيه فكرة موسيقية ليرتجل منها ما يشاء . فجلس « موتسارت » إلى البيانو وبدأ في عزف فكرة موسيقية ، ثم طلب إلى الشاب أن يسير على منهاج هذا اللحن ارتجالاً .

جلس الصبي « بيتهوفن » إلى البيانو وقد بدأ العزف في خجل ظاهر ، ولكن ما أسرع ما اندمج فيه حتى تلاشى في الموسيقى وأصبح لا يحس شيئاً حوله إطلاقاً ، ولا يشعر إلا بوحى الموسيقى والهامها . كان في هذا العزف مفاجأة لموتسارت ، فإنه لم يكن يتوقع من هذا الصبي كل ذلك النبوغ الذي لا يدل عليه مظهر العبد ، وأخيراً نهض « بيتهوفن » بعد أن طبع « موتسارت » على جبينه قبلة التقدير هنالك قال بيتهوفن :

— أسمح لي أن أتلمذ عليك فتعطيني دروساً أتمم بها فني ؟

— نعم وسأبدأ معك من الغد

انصرف « بيتهوفن » ثانياً عطفه يكاد قلبه يثب من صدره

من شدة الفرح أن نال بغيته ، وأصاب طلبته ، وبلغ أمنيته .
وكان إعجاب « موتسارت » بفن الشاب « بيتهوفن » إعجاب
تقدير صادق لعبقريته ونبوغه أنطقه في ذلك الحين جملته
الماثورة الباقية :

« اعتنوا بهذا الصبي فسيكون حديث العالم في المستقبل »
ولكن « بيتهوفن » لم يتلق على « موتسارت » كثيراً من
الدروس فقد انشغل عن تلميذه بإعداد أو براه الجديدة التي تعاقد مع
مدينته « براج » على تلحينها وإخراجها فانصرف اليها بكل ما أسبغ الله
عليه من مواهب وحس وشعور ، ونسى التلميذ .

ومن دواعي الأسف أيضا أن اتصاهما بفينا لم يؤد إلى توثيق
الروابط بينهما ولا إلى التفاهم الذي يقر بهما بعضهما من بعض ذلك بأن
ما انطبع عليه كلاهما من الخلق والعادات كان متباينا حتى لقد كانا
يختلفان في الظواهر الخارجية ، فكان « موتسارت » رقيق المزاج وديع
الأخلاق لين العريكة ، نقيض ما كان عليه « بيتهوفن » من ضخامة
الجسم ، وكبر الرأس كالأسد ذى العينين المتوقدتين ، وكان
« موتسارت » مرحا حلو الفكاهة شأن أهل « فينا » بينما كان
« بيتهوفن » جادا صموتا لا يجيد أساليب التحدث إلى الناس واجتذابهم
اليه فلم تسعفه عبقريته الموسيقية وحدها باجتذاب شخصية « موتسارت »
اليه وحملها على الاهتمام به مدة إقامته في « فينا » وهي لم تزد على الستة أسابيع .
كان هذا اللقاء آخر لقاء بين هذين العلمين طوال حياتهما ، فإن

« بيتهوفن » عند ما زار « فينا » للمرة الثانية كان « موتسارت » قد لقي ربه . لكن ذلك الذى جرت به الأقدار لم يمنع « بيتهوفن » من تقدير فن « موتسارت » فظل مدى الحياة يشيد بذكره ويتحدث بمآثره الفنية . وأية عبقرية تستطيع تقدير « موتسارت » ونتاجه وسموه فنه أولى من عبقرية « بيتهوفن » !!!

لعلت البؤسى فى تتأثر خطى « بيتهوفن » لا تفارقه ولا تريحه ، فلقد تبعته فى مراتع آماله فنغصت عيشته وقطعت عليه مناعم الفن ، ذلك أنه تلقى رسالة من والده ، ولما يقض من « فينا » لبانة أويفيد منها فائدة فنية تذكر ، تتضمن شدة وطأة المرض على والدته وتطالبه بسرعة العودة للوطن .

تعجل « بيتهوفن » مكروباً محسوراً ولكن ما لديه من مال كان لا يكتفى مؤونة السفر ، فلقد كان فى أثناء مقامه « بفينا » يتقاضى وظيفته كعازف بالأرغن فى فرقة البلاط وهى لا تزيد على خمسة عشر جنينها فى العام ، وأنى لهذا المرتب الضئيل أن ينهص بنفقاته فى مدينة كبيرة كفيينا وهى قلب أوربا وعاصمة القيصرية ؟

ولكن هل يحول المال بينه وبين والدته وهى مشرفة على الموت وكانت أحب الناس إليه وأعزها عليه ؟ ليس هذا فى طبيعة بيتهوفن ولا هو من عزمته فى شىء ، إذاً فقد تغلبت عاطمة البنوة فذلت كل صعب وسافر وما فى جيبه من المال لا يغنيه إلا قليلا .

فلما بلغ مدينة (أوجسبورج) نفذ كل ما معه من مال ولكن الله لا يغفل عن الأبناء البررة فأناح له أن يتعرف إلى أحد السفّرة وكان رجلاً وديعاً مشغولاً بالموسيقى هو الحامى الدكتور «شادا Schade» الذى أمدّه بثلاثة جنيهات تمكن بها من متابعة رحلته .

ولقد أغفل «بيتهوفن» غير عامد الكتابة إلى هذا الحامى الذى أنقذه فى الطريق ويسر معسرته فلم يرأسله إلا بعد أن مضى ما يقرب من أربعة أشهر على تعارفهما ، إذ كتب إليه فى ١٥ من سبتمبر الرسالة التالية التى تجلّى عن شعور «بيتهوفن» فى ذلك الوقت والى تعتبر وثيقة هامة يحتفظ بها التاريخ قال :

« صديقى العزيز وسيدى المحترم

أستطيع فى غير جهد أن أقرأ ما يجول فى خاطرك عنى وأحسب أنك بحق أو على الأقل لك العذر فيما تخيلت ، ذلك أن جميع الظروف خاصمتنى والتوت علىّ ، فتوافر لديك من الأسباب ما يحملك على سوء الظن بى . ولا أريد أن أرجو عفوك قبل أن أوضح لك الأسباب التى تتشفع فىّ وتعلن براءة ساحتى .

ما كدت أبرح مدينة «أوجسبورج» حتى برحتنى العافية والحظ معاً . لكنى رغم علتى أسرعت فى العودة مخافة ألا أتمكن من رؤية والدتى فى الوقت المناسب ، فكان هذا الخوف حافزاً لى على التغلب على الصعاب .

وبلغت « بون » ، وكانت والدتي لا تزال تنسم الحياة وإن كانت علتها مهلكة ، ولقد قضيت إلى جانبها ، مسلوب القلب ، سبعة أسابيع حتى لقيت ربها (في ١٧ يولية سنة ١٧٨٧) وخلفتني أتلس بعدها أحن والدّة وأعز صديقة وأرحم قلب .

لم يكن أحد أسعد مني حظا حين كانت شفتاي تنطقان الاسم الحلو « ماما » ، أو عندما كانت هي تنادينني باسمي . وها أنذا أصبحت وحيداً لا أجد من أناجيه غير طيفها الصامت الحى الذى يثقل كاهل حياتي .

ما دخلت منزل والدى حتى أدبرت ساعات مسراتي أو صارت غاية في الندرة ، وأصابني ضيق في النفس ، وقد يصل بي إلى داء السل^(١) ذلك فضلا عن انقباض صدرى الذى لا يفارقني ، والذى لا يقل ثقلًا عن المرض .

ضع نفسك مكاني ولو قليلا ، إنك ولا ريب ، ستقبل معذرتي من إغفالي الرد عليك طوال تلك المدة .

أما الجنيتات الثلاثة التي تفضلت بإمدادي بها فأني أرجو أن تغفر لي عجزى عن وفائها اليوم « ونظرة إلى ميسرة » .

لقد اقتضت رحلتى كثيراً من النفقات ، لما أوفى إلى عوضها . إن حظى في مدينة « بون » حظ منكود ... أرجو عفوك إذا كنت

(١) عاش بيتهوفن طوال حياته متوها أنه سيمرض بمرض السل الذى ماتت به والدته .

أزعجتك بثررتي فلقد رأيت ذلك لزماً على حتى تتبين ظروفى وتجد سبباً للعفو عني .

وأرجو أن تحفظ لى صداقتك الغالية ، وأن أظل فى نظرك موضع الاعتبار .

وإنى مع عظيم احترامى

خادمك المطيع وصديقك المخلص

لودفيج فان بيتهوفن

عارف الأرغن بيلاط أمير كولونيا

وفى الحق إن هذه الأسابيع الأخيرة من حياة والدته كانت أقسى ما لاقاه « بيتهوفن » فى حياته من الشدة والبؤس ، فلقد كان يرى مرض السل ينشب أظفاره فى أعز الناس لديه ، وهى فوق ما تقاسيه من آلام المرض تعاني أضعافه من نكد العيش وهموم الحياة ، وكان ولدها يحز فى نفسه أن تكون هذه حال والدته مع ما هو فيه من المرض وشدة الفاقة ، فقد بلغت هذه الأسرة من المعسرة أشدها ومن التربة منتهأها حتى كان المسكين « بيتهوفن » يرى بعينيه ملابس والدته تباع فى السوق لسد الرمق وبلوغ الكفاف من العيش ، وزاد عبء الحياة على كاهل الولد المسكين بانصراف والده إلى إدمان الخمر وإفراطه فى ذلك الإدمان يوماً بعد يوم ، وعدم شعوره بمسئولية

البيت ، فأخذ الولد على عاتقه عبء الإيفاء عليه واحتمال مشاقه المضنية
وأبى القدر إلا أن تبلغ هذه الأسرة في ذلك العام منتهى البؤس ،
وأن تستكمل فيه نواحي الشقاء ، فقضت في أواخره الطفلة
« مرغريت » شقيقة « بيتهوفن » على أثر وفاة والدتها ، ولم تقطع من
العمر أكثر من عام .

حياة جديدة

مرض الموت الذي اعتلت به الوالدة ، والنفقات المرهقة التي استنفدها المرض والموت ، وإسراف الوالد في إدمان الخمر وتهالكه في تعاطيها ، ورقة الحال التي كانت تعانيها تلك الأسرة ، كل أولئك فت في عضدها وأنهاك قواها وأنزل بساحتها الفقر والبؤس ، وأثقل كاهلها بأحمال الدين .

كان الوالد ، وحده ، يبذر في الخمر وينفق في شربها كسبه ويزيد فيركن إلى الاقتراض والاستدانة ، وكان على « لودفيج » وحده تدير المعيشة ، ومقتضياتها وعوّل والده وشقيقه اللذين بلغ أحدهما السادسة عشرة من عمره ، وقطع الثاني الحادية عشرة منه كما كان عليه الإفقار في تعليمهما ، وتربيتهما .

ولئن كان هذا العبء مما ينوء به الرجل العادي لقد يزيد في ثقله كون هذا الشاب فناناً يعيش في فنه ، ولم يتعود التفرغ لغيره من وسائل جمع المال ، لذلك كان عليه مضاعفة الجهد الفني ، واستنفاد الطاقة حتى نجح ، وكان نجاحه دليلاً قاطعاً على قوة إرادته ، وشدة عزيمته .

لقد رأى الفنان الشاب في « فينا » من روعة الفن ، وعظمة

الفنانين ما جعله يتفانى في فنه ويبذل النفس فيه ، ولكم كان يتمنى أن يتفرغ لدراسته ، وأن ينقطع لمتابعة إنتاجه وتوالمفه الموسيقية لإشباع نهمة وتحقيق رغبته ، ولكنه للأسف ، وقد وجد نفسه حبال مطالب أسرته وما تدفعه للتكسب بما يقيم أودها ، لم ير بدأ من معالجة ما يكره وما يكرهه كل فنان عبقرى من إعطاء الدروس الموسيقية الخاصة .

الحن محك الصدور ، ومثار الرحمة والحنان ، ومبعث المحبة والرفق . وكذلك كانت محنة « بيتهوفن » فقد أثارت إشفاق القلوب الرحيمة والنفوس العظيمة ، ففاضت عاطفة النبيل « فالدشتاين » رقة وحناناً ، وأمد الفتى بألوان مختلفة من العون والمساعدة فى غير من ولا إعلان حتى لكانت وسائل معاونته وإحسانه تكاد تخفى على « بيتهوفن » .

أما صديقه « فرديناند ريس F. Ries » فقد كان مثال الإخلاص والوفاء والتضحية . كان إذ ذاك رئيساً لإحدى الفرق الموسيقية فى مدينة « بون » ويعمل أيضاً فى فرقة البلاط فتوطدت بينه وبين « بيتهوفن » روابط الصداقة وتوثقت عرى المحبة ، فما حل الخطب حتى وقف إلى جانب صديقه ، يواسيه ، ويخفف عنه فجيعة فى والدته ، ويشد أزره ويسعفه بما هو فى حاجة إليه من معونة مادية فى تلك الظروف القاسية . وإذ كان « بيتهوفن » يحمل قلباً يحفظ الود ، ويعترف بالجميل ، فقد احتفظ فى نفسه بجميل صديقه وحسن صنيعه ، وسيتجلى لك فيما بعد

مدى احتفاظ « بيتهوفن » بما أسدى إليه من جميل فيما يقدمه مستقبلاً ،
اعترافاً منه بإحسان هذا الصديق .

بعد وفاة الأم وكلت أعمال المنزل إلى خادم تدبر شؤونه وتقوم على
إدارته . وانتقلت الأسرة من مسكنها الوضيع في « حارة بون » إلى
مسكن أكثر ضعة في « حارة ونسل » وتمادى الوالد في الشرب
وتأخذله من الحانات مقراً . وكانت حاله أسوأ في كثير من الأحيان
فيضطر « لودفيج » إلى الذهاب إليه لإحضاره . وبلغ به الأمر أن
خلصه مرة من يد البوليس .

كان لا بد ، إذن ، أن يطرد الوالد من خدمة الأمير المطران
مشيحاً بالخزى ، موصوماً بالعار ، وكان ذلك متوقعاً في كل لحظة ، لما
انتهى إليه من فساد السيرة ، وسوء السلوك .

وشاء « لودفيج » أن يحتاط للأمر فيتداركه قبل وقوعه ، وقبل
أن توصم أسرته بطرد أبيه ، فتقدم هو إلى الأمير ملتصقاً بإعفاء الوالد
من خدمته ، لحقق رغبته ، وأجاب ملتصقه .

كان مرتب الوالد وقتئذ قد بلغ ثلاثين جنيهاً في العام ، فلما
انفصل من الخدمة رأى الأمير الكريم أن يجري عليه مدى الحياة
نصف الوظيفة (أى ١٥ جنيهاً) ، وأن يزداد نصفها الآخر على وظيفة
ولده « لودفيج » ليتمكن من إصلاح شأنه ، ووفاء ديون أبيه ، وعول
شقيقه ، كما أمر بإعطاء « لودفيج » عشرة أراذب من القمح سنوياً
معونة له على تربية هذين الشقيقين .

إن ما اتصف به الوالد من الحدة وثوران الغضب ، ووضاعة الخلق وفساد السيرة والاعوجاج ومقارفة أمهات الرذائل ولّد في الابن « لودفيج » صفات غير رضية أهمها العناد ، والتسخط ، والتبرم بالناس وازدراء أوضاعهم ، وما تصالحوا عليه من التقاليد .

ونمى هذه الصفات فيه ما كان يراه طوال طفولته ، مما أدى قلبه وعكر صفاء نفسه ، كان يرى أمه دائماً حزينة مثقلة بنسكبات الدهر مستسلمة إلى البكاء والتفجع أمام بوائق الفاقة وقسوتها .

ولقد كان يحز في نفسه أن يتزايد عطف أمه وحنوها عليه كلما اشتدت به غلاظة أبيه وفظاظته ، وكلما رأى تلك الأم الضعيفة المتهالكة تتحمل المشاق والضنأ في السهر على راحته ومساعدته وهو عاجز لا يملك أن يبرها أو يرد عنها أذى . لكنّ هاتين الحالتين المتناقضتين — عسف الأب ، وحنان الأم — أورثناه الجبن وعدم الاعتماد على النفس والغرور .

هذا ما ورثه من السوء عن أبويه ، فما الذي اكتسبه منهما من الصفات الحميدة ؟

قد يكون فيما عرضناه من سيرة الوالد ، وفيما أشرنا إليه من فقر نسب الأم وما يمكن أن تكون عليه ثقافة ابنة طاه ما يكفي للإجابة عما نتساءل عنه .

في الحق إن بيت « بيتهوفن » لم يكن ليخرج هذه البقرية

القذة ، ولا أن يكون هذه الشخصية البارزة ، لولا أن تداركها الله بلطفه وأحاطها بعنايته تدعياً للفن ، وتخليداً للموسيقى الباهرة ، فقبض لها من انتشلها من الهاوية وأنقذها من البوار ، وكان ذا تأثير قوى فى صقل قلب « بيتهوفن » وتهذيب نفسه .

كانت تقيم فى مدينة « بون » سيدة شريفة مثرية وقورة ، هى النبيلة « فون برويننج Breuning » أرملة أحد أمناء البلاط ، وكان لها ثلاثة أولاد تتفاوت أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة وابنة فى الخامسة عشرة من عمرها اسمها « إليونورا » ويلة بمونها فى البيت دائماً « لورا الصغيرة » . وكان الموسيقار « ريس » صديق « بيتهوفن » يقوم بإعطاء دروس فى العزف بآلة الكمان لثانى أبناء هذه الأسرة ، فأراد خدمة صديقه « بيتهوفن » بعد عودته من « فينا » فهد له السبيل للوصول إلى هذه الأسرة والتعرف إليها ، فاتفقت النبيلة معه على أن يعطى دروساً فى البيانو لأصغر أبنائها « ستيفان فون برويننج » الذى ظل طوال حياته صديقاً حميماً لأستاذه « بيتهوفن » ، وكان إلى جانبه فى ساعة موته .

وهنا كان قد بلغ « بيتهوفن » السن التى يشعر فيها المرء بما ينقصه من التربية والتعليم . وأناسست فى ذلك الوقت جامعة مدينة « بون » فأصبحت المدينة مركزاً للثقافة ، ومنتهدى للعلماء والمثقفين . لكن « بيتهوفن » حتى ذلك الوقت لم يكن قد اهتم فى تربيته إلا بالناحية الموسيقية ، فلما اضطر لمجالسة كثير من أهل الفضل وذوى

الراى بدا جلياً نقص ثقافته وتخلفه عن أقرانه وجلسائه .

وإذن فقد كان « بيتهوفن » شديد الحاجة إلى رفع مستوى ثقافته



الشاب بيتهوفن

وتكميل تهذيبه . وهل هناك
فرصة أسعد من اتصاله بتلك
الأسرة النبيلة ، القويمة
الثقيف ، الراقية التهذيب ؟
في الحق لقد كانت
تلك الصلة أسعد العوامل في
تطور حياة « بيتهوفن »
وأجدى الظروف عليه بما
أكسبته من علم وأدب
وتهذيب، وحالته رجلاً خيراً .
كان يسود هذه الأسرة

جو لم يتعوده « لودفيج » : حياة هادئة . عيشة راضية ، يجري كل
شئ فيها دون غلظة أو عنف . كل شئ طبيعي . هناة شاملة .
وسعادة كاملة .

ولما كان موت والده « بيتهوفن » قد أحدث ثغرة في قلبه فسرعان
بما ملأ هذه الثغرة بحب تلك السيدة الفاضلة التي حلت من قلبه محل
أمه لما كانت تحبوه به من العطف والحنان ، وحسن الرعاية وحسبانته

ولدا من أولادها ، يقضى معظم أوقاته بينهم فرداً من أفرادها ،
وواحداً منها .

هنا بدأت أول دراسات « بيتهوفن » للأدب الألماني وقراءته
مؤلفات « كلوبشتوك » ، و « ليسنج » و « جيلرت » وما كان قد
ظهر من نتاج معاصريه الشعارين المبرزين « جيتا » و « شيللر »
بدأت تنقِظ في « بيتهوفن » نواحي الخير الكامنة في نفسه
فعرف ، لأول مرة حقوق الإنسان ، واحترام الإنسانية ، وآمن بالرسالة
البشرية ، وغير ذلك من الخلال الشريفة التي غاب عنه طينها في
بيت أبيه .

أشرقت على « بيتهوفن » في بيت « برويننج » شمس الحياة ،
وأرسلت أشعتها الدافئة إلى تلك الزهرة فتفتحت أكامها وانبعشت منها
القوى الطبيعية الطيبة الكامنة فيها التي كان قد حال دون ظهورها
سحب الغائة ، وحجب الضنك ، فأزهرت وأينعت ، وتذوق
« بيتهوفن » أول سعادة في شبابه . وحسب هذا فضلاً كبيراً لأسرة
« برويننج » على الموسيقى إطلاقاً .

وقام « بيتهوفن » بعد ذلك بإعطاء دروس في البيانو إلى « لورا »
الصغيرة ابنة الأسرة ، وكانت في ميعة الصباء ، فتاة رشيقة ، أنيقة
مرحة ، فأرسل اتصاله بها إلى قلبه أشعة جديدة من نور قدسى أضاء
قلبه طوال حياته ، فقد ظلا صديقين حميمين ، يكنّ لها في قلبه حباً
طاهراً وعاطفة بريئة ، وتحفظ هي له أجل آيات التقدير والإعجاب ،

وقد نفذ حبه أيضاً إلى قلبها ، حباً خالصاً امتزج بالهبة والإجلال .
دام هذا الشعور بينهما ، حتى لقد وجد في ستره « بيتهوفن » عند
وفاته رسالة منها مرسومة في صدرها زهرة وفيها أبيات من نظمها
هذه ترجمتها :

أرجو لك الخير العميم وعزة العمر الطويل
وأود لو أسعدتني بالعطف والظن الجميل
كن للأناة مصاحباً والحلم والرأى الأصيل
صديقتك وتلميذتك

« لورافوره برويننج »

وفي الحق إن « لورا الصغيرة » لتعتبر من الأحوال الشاذة التي
صادفت « بيتهوفن » في التدريس ، فقد كان يسعده التدريس لها
بقدر ما كان يزعجه التدريس لغيرها إطلاقاً ، فإنه كان يمقت للتدريس
كما كان « موتسارت » يمقته كذلك .

كان يسكن تجاه أسرة « برويننج » النبيل « فون وستفال Westfal »
الوزير المفوض لدولة النمسا . وكان « بيتهوفن » يقوم بإعطاء دروس
في الموسيقى لبعض أفراد أسرة هذا الوزير أيضاً ، فكان على الرغم
من اقتراب البيتين لا يذهب إلى تلك الدروس إلا مكرهاً بعد أن تحمله
النبيلة « برويننج » على الذهاب إليها حملاً . كان يساق إلى دروس
تلك الأسرة سوقاً ، حتى لقد كان كثيراً ما يذهب إليها مكرهاً ثم

سرعان ما يعود قائلاً « لقد تعذر عليه اليوم إعطاء الدروس فاعتذر للأسرة من ذلك على أن يضاعف لها الدرس غدا تعويضاً عن درس اليوم » فكانت النبيلة تقول له دائماً في مثل هذه الأحوال : « اليوم سَنَح جنونه » .

وكانت تستولى على « بيتهوفن » ، من حين لحين إثارة مما كمن فيه من سوء الحلال ، فكانت تتملكه أحياناً خلة سوء الظن ، وثوران الطبع ، فينفجر لأقل سبب ، ويثور لأتفه الأشياء ، غير أنه بمن حوله ، ولكن الأم ، والأبنة ، كانتا تتوليانه — كلتاها بأسلوبها — فترققان حاشيته ، وتعيدانه إلى هدوئه فيثوب إلى رشده ، ويدرك خطأه . وعندئذ يقبل عليهما في خجل شديد وفي حالة نفسية مؤثرة ملتصا منهما العفو والغفران .

كانت ساعات السمر في تلك الأسرة مساء من أمتع الساعات « لبيتهوفن » وأسعدها عنده . كان يطلق لنفسه العنان في العزف بالبيانو فيفنى في سحر أنغامه ، وحلو ألحانه . يشترك معه في هذا العزف أحياناً الموسيقار « ريس » فيصاحبه بآلة الكمان .

ومن الفكاهات التي كان « بيتهوفن » يتندر بها ، أن يصور للجماعة في عزفه بالبيانو صورة أية شخصية يعرضونها عليه ، يصورها بالنغم الموسيقى ، ويلبسها طابعها ، ويعبر عن خلاها ، وأهم نواحيها بالتوقيع حتى لكأنك تراها في المرأة .

كان بلاط الأمير المطران « مكسميليان فرانس » تسوده روح طيبة ، وتحوطه هالة من الاحترام والمهابة ، يعنى بالتقاليد الصالحة ، عنايته بالبعد عن التقاليد السيئة التى كانت تغمر مختلف بلاط الإمارات الألمانية الأخرى . كان هذا البلاط خلواً من المحظيات ، اللأئى يرغبن فى احتكار السلطة والسلطان ، كما كان خلواً من المنافقين الذين يلغون فى أعراض الناس وشرفهم ، ديدنهم التملق ، وحبك الكيد ، والتلون وما إلى ذلك من الصفات الدنيئة التى تهبط بالرعية وتوردها موارد التلف والبوار .

وما كادت تلوح بوادر الثورة الفرنسية ، حتى كانت أفواج المهاجرين من الفرنسيين يهرعون إلى ألمانيا فى كثرة غمرت إماراتها ، حاملين إليها معهم وفرة من سوء الصفات وعلامات النحس . وقد عرف الأمير مطران مدينة « بون » كيف يصون بلاطه من شر هؤلاء فأبعدهم عنه ، وساعده فى ذلك مقتته المهجرة والمهاجرين ، والتنقل بين البلدان إطلاقاً . ومن دلائل هذا المقت ما حدث يوم أن قصد إليه النبيل « جراف أرتوا » يزوره ، وبرغم أن الملك « كارل العاشر » هو الذى أبلغ الأمير نبأ الزيارة ، وأوصاه به خيراً ، فإنه تعمد أن يغادر مدينة « بون » ذلك اليوم بعد أن أمر باستقبال النبيل خيراً استقبال ، وإكرامه غاية الإكرام ، وإمداده بما يحتاجه من مال .

وكان هذا الأمير المطران ، لا يشرب الخمر إطلاقاً ، فنتج عن ذلك قوة فى شهيته للأكل ، وحبه للطعام ، فبدن وزاد سممه ولكن

هذا السمن لم يمنعه من حبه المفرط للرقص ، وشغفه به ، فلما حضر « فريدريك الأكبر » ملك بروسيا على رأس جيشه زاحفا على فرنسا في عام ١٧٩٢ وأقيمت له حفلة تكريم في مدينة « كوبلنز » أظهر هذا الأمير الديني في فنون الرقص من البراعة ما أدهش الحاضرين ، وجعلهم يطلقون عليه « القسيس الجني » .

كانت حفلاته الموسيقية ، الخاصة ، التي يقيمها في بلاطه مساء ، ويدعو إليها « بيتهوفن » لإحيائها ، من أجل الفرص لإظهار عبقريته الموسيقية الفذة إذ كان لا يظهر في الحفلات العامة أبدا .

وكان عزف « بيتهوفن » بآلة البيانو موضع إعجاب شهود تلك الحفلات ، ومحل دهشتهم ، لا يقتصر على ذلك الأمير وحاشيته فحسب بل يشمل أفذاذ الموسيقيين الذين تتألف منهم فرقة البلاط أمثال الموسيقار « ريس » وكان فريدا في العزف بالبيانو و« ليون هارد » وهو من أكبر الأساتذة العازفين بآلة الفيولنسل ، وغيرها من فطاحل فرقة الأمير .



« جود سبرج » إحدى ضواحي مدينة « بون » وتقع تجاه القمة الهائلة للجبال السبعة .

وفي هذه القرية عين المياه المعدنية ، أمر الأمير المطران بإعداد حمامات بها ، تشتمل على بهو فخم للحفلات الموسيقية . وفي ذلك البهو كانت تقام حفلة موسيقية كل يوم خميس طوال أيام الصيف .

كان الطريق من مدينة « بون » إلى قرية « جودسبرج » طريقا ساحرا يمتد على ضفاف الرين . وكان المدخل إلى صالة الحفلات الموسيقية رائعا يدخل السرور إلى قلوب أفراد الفرقة الموسيقية في اجتيازهم إياه ، وبخاصة « بيتهوفن » فقد كان يتعشق جمال الطبيعة ، ويتأثر بها وتسكن إليها نفسه الجياشة ، لذلك كان هذا المنظر الخلاب يضاعف مهارة أصابعه وسمو روحه في ابتكار حلول النغمات ، وابتداع سحر الألحان عندما يجلس إلى البيانو يرتجل ألحانه ارتجالا معجزا .
ورغم أن كان « مكسميليان فرانس » أميرا دينيا ، فإنه لم يغفل الاستمتاع بإحياء الحفلات المقنّعة التي يهيم بها أهل الرين ويشغفون بها شغفا كبيرا .

في « بوبلسدورف » إحدى ضواحي مدينة « بون » التي تربطها بها طريق معبدة جميلة ، على جانبيها الأشجار المنسقة الضخمة الواقعة في سفح الجبل ، في هذا المنظر الذي يأخذ باللب ، يقوم قصر أثري لهذه الإمارة .

وفي أحد أبهاء القصر الفسيحة المصنوعة من المرمر ، كانت تقام لمناسبة الحفلات المقنّعة حفلة راقصة تسمى « رقص الفرسان »

وإذ كان النبيل « فالدهشتاين » ذا مهارة فائقة في إعداد مثل هذه الحفلات فقد أعد مناظر هذا الرقص إعدادا رائعا بمساعدة أستاذ كبير لهذا الفن في مدينة « آخن » (اكس لاشابل) . وقد كلف صديقه « لودفيج » القيام بتأليف الموسيقى المناسبة لهذا الحفل .

هو فسيح الأرجاء على البناء صفت به أشجار من النخيل عالية تمتد حتى السقف وتسطع في نواحيه أضواء تنعكس على منشورات ضوئية من البللور لا حصر لها . وقد ظهر في نهاية البهو رسم بدیع للدخل میناء « نابولی » .

يفتح هذا الحفل بمسير مقنّع في شكل استعراض ، مصحوب بغناء وملح ، يمر بالأمر وقد اعتلى منصة مرتفعة تشرف على أماكن البهو ثم يظهر صيادو مدينة « نابولی » بمجاديفهم يحملون شبّاكهم على ظهورهم ، ويتغنون بأغاني شعبية على صوت آلات المندولين . ثم تقبل نساء « نابولی » يحملن الأزاهير ، والفاكهة ، خلفهن عربة أمير « الكرنفال » تحوط به حاشيته وأتباعه ، وهو في طريقه من إيطاليا إلى بلاد الرين ، ولم يترك أمير « الكرنفال » شيئاً إلا استصحبه معه في معيته ، حتى أتى « جاموسة » ضخمة ، هي صناعية ، ولكنها مطابقة جداً للطبيعة ، تجر عربة ذات عجائنين محملة من كل مالد وطاب .

ثم يظهر وسط الحفل مهرّج إيطالي في صورة طبيب روحاني يعرض على الناس أدويته وطرق علاجه . ثم يظهر معه اثنان من الأمساخ (المضحكين) يأتيان من الإشارات وتحريك عضلات الوجه ما يضحك ويشير في القوم السرور والانشراح . ثم يخرج رجلان يضرب أحدهما على طبل كبير ضخم ، والثاني يعزف بالنفير .

يعقب كل ذلك استعراض مقنّع للجواهر كبيرة تمثل شعوب الأرض قاطبة في أزيائها المختلفة .

كل هذا المهرجان يمر بالأمير في جلسته ، وتتمهل كل طائفة عند مرورها به حتى لتقف لتحيته ، فإذا ما انتهى هذا العرض صعد أمير « الكرنفال » إلى منصة عالية يلقي من فوقها خطاباً مضحكاً ، فإذا انتهى من خطابه دوت الأبواق بالعزف ، وينتشر في الهواء أريج عطري ، يظهر فيه اثنان وثلاثون فارساً وسيدات الشرف في شكل أزواج ، يمثلون الطبقات المختلفة لأشراف سكان بلاد الرين ، وقد ارتدوا ملابس العصور الوسطى المطرزة بالذهب الوهاج ، والفضة والأحجار الكريمة ، أزواج من الشباب في جمال رائع يأخذ بالباب الناس .

وأروع من هذا كله ، ما يسمع حينئذ من ألحان ساحرة تنبعث من فرقة الأمير في مارش من تأليف الشاب « بيتهوفن » يسير عليه ركب الفرسان ، وسيدات الشرف ، في طريقهم إلى الأمير لتقديم فروض الطاعة . إن قوة انسجام هذه الألحان ، وسحر أنغامها ليعثان الفرح والسرور في قلوب الجميع بل لقد أحس الأمير نفسه كأن الألحان أصابته بهزة عنيفة فأنحنى يستمع إليها . ثم وقف يحيي أزواج الفرسان . ثم تنساب النغمات فتملأ الجو سحراً وروعة ، وينتهي الحشد المقنع للرقص . ثم تظهر جوقة الملحنين فيتغنون بأغاني شعبية ، خمرية ، غزلية ، وغيرها من مختلف أنواع الأهازيج والأناشيد .

موسيقى رائعة ، تحبس أنفاس المجتمعين ، وتستولى على مشاعرهم تلك الألحان جميعها هي ألحان الشاب « بيتهوفن » موضع الدهشة والعجب .

نهر العهد بمدينته بون

جاور « بيتهوفن » العشرين من سنى حياته ، فأصبحت تتغلب عليه صفات الجد ، والصمت ، والتفكير العميق ، وصار منظره ينم عن شخصية جادة ، وخلق صلب . ومصدر هذه الصفات ، ولا ريب ، نشأته في طفولته .

كانت آلة « الأرغن » أحب الآلات الموسيقية إليه ، وأقربها ، يجد فيها قوة قاهرة تنجذب إليها نفسه ، فكان كثيراً ما يقصد في المساء إلى الكنيسة منفرداً ، فإذا أحس الوحدة والسكون إلى النفس أقبل على تلك الآلة الضخمة يستودعها ألواناً من مبتكرات وجدانه العبقري . كانت أصابعه تنقل فوق مفاتيحها فتخرج منها السحر أنغاماً وألحاناً . أصوات قوية ضخمة رهيبية ، تنبعث من روحه فتملأ أركان المكان بالمتناقضين — الألم والسرور — مما يترجم عن مشاعر تلك النفس ، وما يتسلط عليها من مختلف النزعات . أنغام حلوة ، في انسجام رائع ، تمثل ثورة العواطف التي يحتزنها قلب الفنان ، وألحان ملأنيكية يصل صداها إلى الطريق فتوقف المارة حاشدين في جموع متراصة تنهمس فيما بينها « هذا هو الشاب بيتهوفن » .

وفي ذات يوم ، خرج « بيتهوفن » ونفر من صحبه للنزهة في

« جودسبرج » فعلوا أن كنيسة في دير قريب قد أعيد بناؤها ،
وجيء لها بآلة أرغن جديدة .

فصعدوا جميعاً إلى الدير وأقبل « بيتهوفن » على آلة الأرغن يسائل
مفاتيحها حلو النغم . كان بعض العمال يزاولون بعض أعمال التنظيف
في الكنيسة . وانسجم « بيتهوفن » في موسيقاه ، وفقى فيها حتى انبعث
من الآلة سحر . وسرعان ما سقطت من أيدي العمال مكانسهم وانفرط
ما كان بها من أدوات ، ووقفوا جامدين ، مأخوذين بسحر النغم الذي
يسمعون ، وقد تسلط عليهم فلم يستطيعوا منه فكاً . وما كان
يدور بخلد أحدهم أن تلك الآلة يمكن أن ينبعث منها مثل هذا السحر .

حل ديسمبر سنة ١٧٩٠ ، فعاد إلى مدينة « بون » أحد أبنائها
البررة بعد طول غيبته عنها ، هذا الابن البار هو أحد أفراد أسرة
« سالومون » وكانت مجاورة لأسرة « بيتهوفن » . كان نابغا في العزف
بآلة الكمان ، وهاجر يسعى لعله يصيب في العالم حظاً . فألقى به التسيار
في مدينة « لندن » واستقر يعمل في فرقة الموسيقى الكبرى . كان
عائداً إلى لندن فانتهز فرصة مروره بمدينة « فينا » وعرج يزور مسقط
رأسه مدينة « بون » . لم يكن « سالومون » في تلك الرحلة وحيداً ، بل
لقد اصطحب رجلاً كهلاً يمشى العقد الخامس من عمره لا ينم مظهره على
شيء غير عادي . إنما كان بشوش الوجه . خفيف الروح مرحاً .

سرى التهامس في فرقة البلاط بمدينة « بون » فقال قائلاً :

— أتدرى أحدث الأنباء ؟ إن الموسيقار « جوزيف هايدن »
هنا . لقد صحبه « سالومون » من « فينا » ليقم حفلات بلندن .
صدق المتهاوسون . فقد كان حديثهم صحيحا . فإن الموسيقار
الخالد « جوزيف هايدن » كان حقيقة في مدينة « بون » وقتئذ . ودعاه



جوزيف هايدن

الأمير المطران إلى بلاطه لسمع من أعضاء فرقته الموسيقية عزف بعض
مؤلفاته تكريما له .

فلما فرغ الأعضاء من عزفهم عرفهم الأمير إلى الموسيقار الخالد
فأثنى عليهم جميعا ثناء مستطابا ، وحمد لهم أن أدوا المقطوعات خير

ما يمكن أن يكون الأداء ، وبعد : فمن يكون هذا الذي كان يعزف بالأرغن عزفا تنقطع دونه الكفايات ؟ لقد كان عزفه ساحرا حقا .
فأجابه الأمير المطران :

— هو فتى يدعى « بيتهوفن » . شاب سنًا ، شيخ فنًا . أو إن شئت : عبقرية موسيقية نادرة .

وسر « بيتهوفن » أن تسمع أذناه هذا الثناء من فم الموسيقار الخالد « هايدن » يزكّيه ذلك الإطراء من أميره المطران .
وكانت فترة قصيرة استأذن بعدها « هايدن » لاضطراره لاستئناف السفر في ذلك اليوم . لكنه وعد الفنان الشاب أن يلتقى به مرة أخرى .

تركت تلك الزيارة في نفس « بيتهوفن » أثراً كبيراً وأصبحت « بون » في نظره حيزاً محدوداً يضيق بأمله . إنه يحس في أعماق نفسه شيئاً أكبر مدى مما يحيط به .

ويشعر الآن برغبة في الخروج على ما ألفه واعتاده من قبل . يريد أن يستكمل ثقافته الموسيقية وأن ينقطع إلى دراستها . ولكنه يرى المستقبل في تلك الناحية مظالمًا ، إذ تعوزه الموارد التي يمكنه أن يعتمد عليها . إنه يريد أن يجوّد علم صياغة الألحان و « الكنتراپوا » وأن يتعمق في دراستهما تعمقا يرتفع به إلى صفوف المثاليين ، ويسمّوه إلى حيث « هايدن » و « موتسارت » . وكانا كوكبين يسطعان في سماء الفن .

جاء خريف ١٧٩١ فقام الأمير المطران برحلة استغرقت بضعة أسابيع .

وكانت فرصة رأتها الفرقة الموسيقية سانحة لتقوم فيها برحلة قصيرة ، فاستقلت يختاً من يخوت البلاط . أما « بيتهوفن » فقد وجد في تلك الرحلة فرصة مواتية درس فيها ألحان أوبرا « دون جوان » لموتسارت وكان قد أعارها له صديقه النبل « فالدهشتاين » .

ولما وصل الركب مدينة « أشافنبورج » قصد « بيتهوفن » وصديقه « ريس » إلى الموسيقار « آبت ستيركل » وكان من أشهر العازفين بآلة البيانو المعروفين بصوغ الألحان .

استقبلهما « آبت » خير استقبال ، وكان لا يجمل اسم « بيتهوفن » فقد عرفه جيداً من مؤلفاته في آلة البيانو .

جلس « آبت » إلى آلة البيانو ، بناء على رغبة ضيفيه ، وأخذ يعزف ألحاناً من أوبرات « موتسارت » . هنالك سمع « بيتهوفن » لأول مرة عازفاً ماهراً بتلك الآلة ، شأه وتفوق عليه .

كان « آبت » ينهج في عزفه نهجاً خاصاً ، جعل له طابعاً يمتاز به . وكان في عزفه رقيقاً ، وديعاً ، لين الحركة حتى لتمثل أنه إنما يحرك على المفاتيح أنامل سيدة ، كل ذلك في مهارة تدهش السامع ، وتأخذ بلبه .

فرغ « آبت » من عزفه فأقبل عليه ضيفاه يطربانه ، ويثنيان عليه . ثم طلب المضيف إلى « بيتهوفن » أن يجلس إلى البيانو ويسمعه

بدوره شيئاً من تواليفه . وأراد الفنان الشاب ، تواضعاً منه ، ألا يعزف بعد هذا الموسيقى العظيم ، فاعتذر ، ولكن « آبت » كان ما كرر فقد عرف كيف يثير « بيتهوفن » فقال :

— يستطيع المرء أن يكون مؤلفاً مجيداً ، وأن يضع لآلة البيانو أصعب المقطوعات ؛ ولكنه قد يعجز هو نفسه عن عزفها ، والغلب على ما فيها من الصعوبات .

أثار ذلك القول « بيتهوفن » فأجاب في سرعة وحماس :

— هل لديك مقطوعتي « تعالى يا حبيبتي » ؟

— بل اريب

كانت هذه المقطوعة أصعب مقطوعة كتبها « بيتهوفن » لآلة البيانو . وقد اغتبط « آبت » بنجاحه في إثارة « بيتهوفن » وحمله على العزف . ولكنه لم يستطع أن يقدم له تلك المقطوعة التي طلبها . فاعتذر إليه بأنه لا يعرف إن كان قد أعارها أحداً أو هي في مكان مجهول .

— هذا غير مهم ، سأعزفها من ذا كرتي ، قدر ما أستطيع .
أجاب « بيتهوفن » بهذا القول وقد جلس الى البيانو ، وأخذ يعزف مقطوعته من الذاكرة .

لم يدهش « آبت » وحده لعزف « بيتهوفن » بل لقد دهش « ريس » أيضاً ، برغم أن عزف صديقه لم يكن جديداً عليه . إنما كانت دهشتهما من أن « بيتهوفن » لم يعزف مقطوعته الموضوعة

فحسب ، بل زاد عليها ارتجالاً من تأليفه كل معجز مبتكر ، وأضاف إليها من الصعوبات الفنية في الأداء أضعاف ما كانت تحتوى عليه أولاً ثم هو بعد ذلك ينهج في عزفه نهج « آبت » فيأخذ عنه طريقته في العزف ويسلك أسلوبه غاية في الدقة والروعة ، برغم انشغاله بالتأليف أثناء العزف .

لم يسع « آبت » تلقاء هذا الإعجاز إلا أن يضم الفنان الشاب إلى صدره ، وأن يعترف له أنه بزه وشأه .

* *

طالع الناس في الصحف أخبار النجاح العظيم الذي أصابه « هايدن » في لندن ، وذاع نبأ هذا النجاح في أوربا قاطبة ، فعمت شهرة ذلك الفنان ، وحققت تخليد ذكره ، وذلك بأن المؤلفات التي ظهرت له في بلاد الإيجليز في أثناء تلك الرحلة قد بزت جميع ماسبقها من تأليفه ، وما تقدمها من مبتكر تصانيفه .

وفي يولييه سنة ١٧٩٢ عالج ذلك الموسيقار الشيخ بمدينة « بون » ثانية في طريق عودته إلى « فينا » .

كان الأمير المطران متغيباً عن المدينة وقتئذ ، فقام أفراد الفرقة الموسيقية نيابة عن أميرهم بتكريم هذا الموسيقار النابغ ودعوه إلى حفلة تكريم في « جودسبرج » الجميلة .

قدم إليه « بيتهوفن » مقطوعة من تأليفه وضعها حديثاً فأخذ « هايدن » في الفحص عنها ، وكان كلما تقدم به الفحص تزايد أسارير وجهه

انبساطاً ، ويفيض وجهه سروراً وبشراً ، وما كاد يفرغ منها حتى أطرى عبقرية الفنان الشاب ، معجبا باستعداده العظيم ، وقوة نتاجه .
ألهبت زيارة هذا الموسيقار العظيم لمدينة « بون » في قلب « بيتهوفن » نار الرغبة في الرحيل إلى « فينا » وأشعلت فيه لهيب الاستزادة من دراسته الموسيقية حتى يستكملها .

لم ينته العام حتى تحققت آمال الفنان الشاب ، فقد رأى الأمير المطران أن يبعث به إلى مدينة « فينا » ليتعلم فيها على « هايدن » . وقد أمر أن تصرف له وظيفته بصفة كونه عازفا بالأرغن ، شأنه في رحلته الأولى وكان الأمير يرمى بهذا إلى أنه متى أتم « بيتهوفن » دراسته بفينا ، وأصبح في فنه أستاذاً لا يشق له غبار أعاده إلى « بون » رئيساً لفرقة البلاط كان « بيتهوفن » قد بلغ الثانية والعشرين من عمره . ولقد كتب إليه صديقه النبيل « فالدهشتاين » كلمة وداع جاء فيها :

« إنك لجدك المتواصل ، وكذك المستمر ، ستحرز روح « موتسارت » وأنامل « هايدن » .

أما أسرة « بيتهوفن » فقد أصبحت في غير حاجة إلى عوله إياها في أثناء غيابه ، ذلك بأن أخاه الأصغر « كارل » أصبح عازفاً مجيداً بالبيانو ، وكان يتكسب من إعطاء الدروس ما يقوم بمعيشته ، أما شقيقه « يوهان » فكان تلميذاً يتمرن بصيدلية البلاط ويتقاضى أجراً على ذلك يقوم بنفقته ، وكان الوالد لا يزال يستولى على معاشه من الأمير وفي بداية شهر نوفمبر بدأ « بيتهوفن » القيام برحلته إلى فينا ،

وكان أقسى ما أحزنه فراقه لأسرة « بروينج » التي ألف الحياة معها وأصبح يعد نفسه فرداً من أفرادها .

بل لقد كان فراقه لمدينة « بون » فراقاً أبدياً ، اذ كتب عليه ألا يرى هذا الوطن بعد ذلك أبداً ، فكان الفراق وداعاً أبدياً لتلك المدينة ولوالده أيضاً ، فامقد مات الأب في الشهر التالي لرحلته واستجاب نداء ربه في ١٨ ديسمبر سنة ١٧٩٢

النور والظلام

وجد « بيتهوفن » في هذه الرحلة بغيته ، وتحققت له فيها أمنيته ، فما كاد يصل إلى « فينا » حتى استقر مقامه فيها وتسامح له الدهر وسالمته الأيام ، وأصبح في آيآن من العيش ، ودعة من الحياة ، واستقبلته في « فينا » أيام ذهبية حقاً ، مهدت له السبيل إلى تحقيق غاياته ، من الحياة الفنية السامية والحياة الاجتماعية الراقية ، فوق ما كان يتمنى .

إن التواصلى الكريمة التى زوده بها أميره المطران ، فتحت أمامه في « فينا » أبواب قصور الأشراف ، والنبلاء وعلية القوم ، ومهدت له طريق الوصول إليها ، وسرعة الاندماج فيها .

كان أول من فتح بابه لهذا الفنان من هؤلاء النبلاء هو العالم الكبير « فان سويتن » وكان في بداية العقد السادس من عمره .

كان صديقاً للموسيقار « موتسارت » . وكان على اتصال وثيق بالموسيقار « هايدن » وهو الذى نظم له قطعتيه الدينتين الخالدين : « الخلق » و « الفصول » ، وهما من نوع ألحان « الأوراتوريو » بعد أن نقلهما من اللغة الإنجليزية وتصرف فيهما .

كان هذا النبيل مشغولاً بالموسيقى ، ولوعاً بها ، مما جعل له مركزاً خاصاً في الأوساط الراقية في « فينا » . وهو عالم واسع الخبرة . كانت

له مكتبة قيمة جعل منها « أكاديمية » حقيقية صارت المرجع الوحيد الذي يقصد إليه الموسيقيون في كل ما يمكن أن يحتاجوا إليه من مقطوعات موسيقية .

سمع هذا النبيل « بيتهوفن » فراعته حسن توقيعه على آلة البيانو ، ولمس فيه نبوغاً خارقاً ، وعبقرية جاوزت المدى فقربه إليه . وكثيراً ما كان يقيم في بيته حفلات موسيقية يحييها هذا الفنان الشاب ، فإذا ما انتهت الحفلة ، وانصرف المدعوون ، استبقى صاحب الدار ذلك الفنان ، ليشبع همته بالعرف له وحده مقطوعات خاصة ، سيما من الموسيقى « باخ » .

وكثيراً ما أرخى الليل في تلك الحفلات رواقه على « بيتهوفن » فعاقه ، إلا بمشقة ، عن الذهاب إلى منزله فأعد النبيل له في بيته غرفة خاصة يأوي إليها في أي وقت شاء ، فلا يضطر للعودة إلى منزله إذا ما جن عليه الليل .

وكان في الصدارة من أنصار « بيتهوفن » ومعضديه الأمير « كارل ليشنوفسكي » وهو من أسرة شريفة ، عريقة في المجد من أصل بوهيمي . وكان هذا صديقاً لموتسارت أيضاً ، وقد تعلم عليه وقتاً غير قصير .

وجدت الموسيقى في هذا الأمير النبيل نصيراً مظاهراً وعضداً قوياً ، وعاهلاً في أدق معناه . ولم تكن زوجه بأقل منه في هذه السبيل .

هى النبيلة « تون » من أسرة شريفة ، عريقة فى المجد . كانت تهيم بالموسيقى وتتدله فيها ، وتناصر أهلها مناصرة يضيق عنها الوصف . وكانت ، كزوجها ، تجيد العزف بالبيانو . لا يبرزها فيه غير النبيل « موريس ليشنوفسكى » شقيق زوجها ، وكان أيضاً تلميذا لموتسارت وظل طوال حياته من أصدق أصدقاء « بيتهوفن » .

لم يمض على وصول « بيتهوفن » إلى فيينا وقت كبير حتى توطدت صلته بأسرة الأمير « كارل ليشنوفسكى » وزوجته فانتقل للإقامة فى قصرهما .

كان يقام فى هذا القصر ظهر كل يوم خميس حفلة موسيقية يشترك فيها الشخصيات البارزة من الموسيقيين الموجودين فى فيينا ، والطبقة الراقية من عشاق هذا الفن .

وكانت هذه الحفلات من أسعد الفرص لظهور عبقرية « بيتهوفن » فى مبتكراته ، بل لقد كان ابتداعه فيها هو المستودع الفنى الذى اغترف منه « بيتهوفن » نفسه فيما بعد .

كان كل شىء متوافراً فى قصر ذلك الأمير ، ولكن قد يكون فيما يحسبه الناس نعمة وهناءة تنغيص « لبيتهوفن » ينأى به عن المتعة والراحة .

كانت الساعة الرابعة مساءً موعداً محددًا للطعام ، فكان « بيتهوفن »

يكره ذلك لأنه يقيد حريته ، ويعوق حركته حتى لقد ناجى نفسه في ذلك يقول :

— ويلي . أتحم على التقاليد أن أحضر يوماً في الساعة الرابعة !!
أغلال أتقيد بها دائماً في سبيل الحرص على هذا الموعد . ويتحتم على أن
أغير ملابسي ، وأن أحلق لحيتي . اللهم إني لا أستطيع على ذلك صبراً .
إذن فقد بدأ « بيتهوفن » يستخف بهذه التقاليد ويهزأ بها . وكثر
تخلفه عن موعد الطعام مفضلاً عليه أن يتناوله في الخارج بأحد المطاعم
المتواضعة .

وعجيب أن يرى الإنسان في شخصية « بيتهوفن » ناحية عجيبة ،
تحمّله على إحداث التناقضات في تصرفاته .

فقد حدث مرة أن استدعى الأمير أحد خدمه ووجه إليه القول في شدة :
— إذا سمعت الجرس يدق لاستدعائك ، وتبينت أن السيد
« بيتهوفن » يطلبك ، ثم دق جرس آخر في نفس الوقت في طلبك ،
فلتقدمه عني ، ولتذهب إليه أولاً لتنفيذ أوامره .

بدل أن يحمّد « بيتهوفن » للأمير هذه العناية ، ويشكر له هذه
الرعاية ، ساءته منه هذه العبارة فاستحضر له خادماً خاصاً يقوم على
خدمته في القصر .

وأضرب عن ركوب خيل الأمير فاشترى له جواداً اختص به ،
ولكنه سرعان ما سئم ركوب الخيل فنسى الجواد ولم يذكره حتى جاءه

من يقوم بتوريد علفه يطالبه بسداد مبلغ كبير ، وعندئذ تذكر « بيتهوفن » جواده وقد أغضبه بهظ النفقات .

وكان إذا أقبل الصيف ، نزع « بيتهوفن » الى الريف فأقام في مسكن مستقل بعيد عن قيود التقاليد .

كانت هذه الحياة الريفية أكثر موافقة لطبيعة « بيتهوفن » وكانت الطبيعة — كما يقول عنه أحد معاصريه — غذاءه ، يجد فيها طمأنينته واستقرار نفسه ، وكان بيتهوفن يقول :

« ما أسعدنى ، انى أسير من حين الى حين ، وسط هذه الأحراش ، والغابات ، والأشجار . ليس فى الأرض إنسان يحب الريف حبي له »
فاذا أقبل الخريف عاد « بيتهوفن » الى قصر الأمير « ليشنوفسكى » عاش « بيتهوفن » على هذا المنوال فى قصر الأمير عدة سنين .
وكان الأمير وزوجه يعاملانه غاية فى الرقة وحسن الرعاية ، وغاية فى التسامح إذا خرج على التقاليد المرعية ، والعادات المصطلح عليها التى ترتبط بها تلك الأسرة ؛ بل لقد بلغ من تسامحهما أن كانا يرضيان عن تصرفاته ، وبخاصة الأميرة ، فإنها كانت ترى فى طباع « بيتهوفن » شذوذاً خاصاً به لا تجده فى غيره فكانت تعجب بهذه الناحية ، وتدافع عنها أمام زوجها ، فكان حبهما له عظيماً ، ورعايتهما له منقطعة النظير .
حتى ليصف ذلك « بيتهوفن » نفسه فيما بعد فيقول :

« لقد كانا يغمرانى بحب أبوى ، سيما الأميرة ، فما كان ينقصها إلا أن تضعنى تحت ناقوس من الزجاج حتى لا يصيبنى سوء ، ولا يمسنى نسيم »

وكانت شقيقة الأمير « ليثنوفسكى » زوجة للأمير « أندريا راسيوموفسكى » الوزير المفوض للروسيا في فينا وكان هذا البيت من البيوتات التي فتحت أبوابها أيضا لبيتهوفن مرحة به ، ومكرمة له .
كان الأمير « راسيوموفسكى » ذا قوام معتدل ، ومظهر خلاب ، مجيدا للعزف بآلة الكمان ، تنقطع لخدمته فرقة رباعية من أبرع العازفين في ذلك الوقت . ولقد ذاعت شهرتها حتى كان الانتساب اليها يعد شرفاً عظيماً ، وكان العمل فيها شهادة فنية محترمة ، بل لقد كان من ينضم اليها من الموسيقيين يضمن لاسمه الخلود في صفحة الفنانين .
كانت كل رباعية يؤلفها « بيتهوفن » تجربتها أولا تلك الفرقة فتؤديها أدق مايكون أداء ، وأصدق مايكون فنا يسكن المؤلف اليه ويطمئن له . وكان أفراد تلك الفرقة يستجيبون لجميع رغبات « بيتهوفن » وينفذون تعليماته ويحتملون في ذلك أحياناً ثوران غضبه برغم ما بينهم من فوارق السن ، فهو الفنان الشاب ، وجميعهم من شيوخ الموسيقيين



ولعل القارئ يتطلع الى معرفة ماوصل اليه بيتهوفن من تحقيق الغرض الأساسى الذى وفد من أجله الى فينا وهو استكمال ثقافته الموسيقية على أستاذه الموسيقار « هايدن »

لم يتوان « بيتهوفن » فى تحصيل دروسه على أستاذه بل كان فى هذا التحصيل التلميذ النابه ، والطالب الحريص المستجمع ، وكان موضع

رضاء أستاذه ، ومحلى تقديره وإعجابه . ولعل فيما نوردته من رسالة بعث بها « هايدن » الى مدينة « بون » ما ينطق بهذا الإعجاب ، قال :
— وسأضطر قريباً الى اعطائه أوبرا كبيرة . فإذا استطاع ابتداء هذا النوع من التأليف ، كان لزاماً أن أكف عن التلحين إطلاقاً ، إذ أن كفايتي تختفى وقتئذ أمام تلك العبقرية الجبارة » .

هذا ، ولا ريب ، إطراء بالغ ، ينضوى في ثنياه أكرم معاني التقدير ، سجله أكبر موسيقار في « فينا » اذ ذاك غير منازع . لكن الشاب « بيتهوفن » في الحق ، لم يكتسب كثيراً من علوم هذا الموسيقار الشيخ . ذلك بأن طريقة تدريسه كانت تجرى على نظام « المدرسة القديمة » التي لم تتفق وروح « بيتهوفن » الوثابة وعبقريته الفنية ، فكان يجد في تلك الدروس مملاً مسماً رغم مبالغة « هايدن » في حسن معاملته ، وجميل رعايته . ولما كان سوء الظن متاصلاً في نفسه فقد كان يعتقد أن « هايدن » إنما كان يرضن عليه بعلمه ، ويبخل عليه بفته .

أيد ذلك الظن ما حدث من أن « بيتهوفن » ، وكان عائداً يوماً من دروسه يتأبط كراسه ، إذ قابله الموسيقار « شنك Schenk » — وكانت مسرحيته الغنائية « حلاق القرية » قد أذاعت صيته ونشرت ذكره — فاطلع على كراسه « بيتهوفن » ووجه نظره الى كثير من الأخطاء زعم أن « هايدن » أغفل تصحيحها وفيها مخالفة لأصول الفن وقواعد الموسيقى .

— من السهل على عظماء الرجال أن يمروا على الخطأ فلا يلحظوه .
وليس من مدونات الرجال العالم أن يجيد فن التدريس . فانظر هنا .
هذا خطأ .. ثم هذا .. يخالف أصول الفن .. وهذا أيضا ..

— ماذا ؟ أهيملنى « هايدن » ولا يهتم بتصحيح أخطائى ؟ إذن ،
فماذا أرجو من ذهائى إليه إذا كنت لا أعلم منه شيئا ؟
وصار « بيتهوفن » من ذلك اليوم يذهب أولا بما يكتبه الى
لموسيقار « شنك » لتصحيحه ، ثم يعيد كتابته ثانيا حتى لا يلحظ
أستاذة « هايدن » خطأ المصحح .

فلما كان يناير سنة ١٧٩٣ رحل « هايدن » إلى « لندن »
فوجد « بيتهوفن » فرصة سانحة للتخلص منه ، وانتقل فتعلمذ على
الموسيقار « شنك » ثم ترك « شنك » وتعلمذ على الموسيقار
« البرشتسبرجر Albrechtsberger » ثم « سالييرى Salieri » الذى
لقنه الانسجام الصوتى فى توزيع أصوات الغناء . وهكذا أخذ يتنقل
من أستاذ لآخر حتى تمت له دراسة علم صوغ الألحان اثنتى عشرة مرة
ولم يغفل « بيتهوفن » دراسة صناعة بعض الآلات الموسيقية
ومعرفة تركيبها ، وبخاصة أسرة الكمان ، والنفير ، والكلارينيت .

كان لاتصال « بيتهوفن » ببيوت الأمراء ، والأشراف ، واندماجه
فى تلك الأوساط الراقية فضل ذبوع صيته فى أرجاء « فينا » وانتشار
شهرة بصفة كونه أكبر عازف بالبيانو ، حتى لقد أصبح ينافس فى ذلك

أساطين العازفين بهذه الآلة ، وأكبر المبرزين فيها وقتئذ .
وكان من أكبر عوامل نجاحه ، وأسباب تفوقه على منافسيه أنه
كان في عزفه الفنان المعتد بنفسه ، الواثق من قدرته .
ولقد تزايدت تلك المنافسة حتى انقلبت حسدا وبغضاء ، وعلى
الأخص عند ما علم المنافسون أن هذا الفنان الشاب يعتزم الإقامة
والتوطن في « فيينا » .

وفي الحق لم يكن ينازع « بيتهوفن » في العزف بالبيانو في كل
« فيينا » غير اثنين من أمهر العازفين ، هما : « يوهان نيبوموك هومل
Johann Nepomuk Hummel » الذي ذاعت شهرته منذ حادثته ،
ورحل إلى مختلف الممالك ، ولكنه ، وقد تفرغ الآن للتأليف ، فقد
ندر ظهوره في الحفلات العامة عازفا بالبيانو . والثاني هو الموسوقار
« فوافل Wölfel » من مدينة « زالتسبورج » وطن « موتسارت »
وكان هذا الفنان في مهارته يضارع « بيتهوفن »

والواقع أن طبيعة خالق أصابع « بيتهوفن » لم تكن بالتي تصلح
لتلك المهارة الفائقة في العزف بالبيانو ، ذلك بأنها كانت ضخمة تظهر
كأنها متساوية الطول ، وكانت الأصبع الخنصر منها مساوية لبقية
الأصابع حتى ليخيل للناظر إليها أنها مخروطة خرطا .

إنما كان يرجع تفوق « بيتهوفن » إلى ابتكاراته الباهرة وارتجالاته
الرائعة التي كانت تسحر سامعيه ، وتأخذ بالبابهم فينجذبون إليه .
كان قديرا بحيث يستطيع أن يتنقل في الألحان من أيسرها إلى أعسرها

ومن أسهلها إلى أشدها تعقيدا ، فكان يتنقل من مقام إلى مقام ، ومن ضرب إلى ضرب . كما يتنقل في معايره من عاطفة إلى عاطفة ، فكان يخرج من السرور إلى الحزن ومن المرح إلى الترح ، ثم إلى التندر والفكاهة ، كل ذلك في نغم حلو ، وألحان ساحرة . كل شيء جديد مبتكر ، يحمل طابع الفنان ، وشخصيته .

وكان « بيتهوفن » كثير التأثر في أثناء عزفه ، يبدو تأثيره جليا في أعضاء جسمه ، فكانت تتحرك عضلات وجهه وتنفخ شرايينه ، وتجحظ عيناه ، وترتعد شفاته . كان يظهر كأنه الساحر تسلطت عليه الأرواح ، واحتواه الجن .

و شاء القدر الضحوك أن يعبس ويكفر ، وانقلب الضياء المنير حلكة وظلاما ، وحالت السعادة الهنيئة شقاء وبؤسا .
في عام ١٧٩٤ أصاب مدينة « بون » مسقط رأس « بيتهوفن » داهية دهياء ، فقد استولى الفرنسيون عليها وطردها المطران « مكسمليان فرانس » .

لم يفقد بيتهوفن بذلك راتبه بصفة كونه عازفا بالأرغن في البلاط فحسب ، بل فقد بذلك وظيفته العالية الثابتة التي كان يعد نفسه لها ، والتي كان سيمتقلدها بعد عودته إلى مدينة « بون » .

إذن فقد اضطر « بيتهوفن » إلى الظهور في الحفلات العامة يحميمها ليتكسب منها .

رحل إلى « براج » وعزف فيها مقطوعات من تأليفه وأخرى لموتسارت ، فكان موضع الدهشة والعجب . وكذلك كان في مدينة « ليبزج » .

ثم رحل إلى « برلين » حيث عزف فيها أمام الملك « فريدريك الأكبر » فاتحفه ببذرة من المال . وفي هذه المدينة تقابل مع الموسيقار « هيميل Himmel » وكان واسع السمعة ، بعيد الصيت ، خلدت ذكره مؤلفاته الموسيقية من الأوبرات ، والأغاني التي وفق فيها كل التوفيق .

طلب « هيميل » إلى « بيتهوفن » أن يرتجل على البيانو بعض الألحان ، فلبى طلبه ، ولما انتهى تقدم « هيميل » بدوره الى البيانو يرتجل عليه مختلف الألحان ، ويتدع ماوسعه من حلول النغم ، و « بيتهوفن » في ذلك ينتظر و ينتظر ويعتقدا أن « هيميل » لا يزال يمهّد لموضوع لم يدخل فيه بعد ، وطال انتظاره حتى ضاق ذرعاً فقال :

— متى تبدى إذن ؟

وإذ كان « هيميل » قد انتهى من عزفه فقد ساءت هذه الملاحظة وأحس امتحاناً يصيبه في أعماق نفسه ، فصار من ذلك اليوم عدواً من ألد أعداء « بيتهوفن » .

وأعجب فردريك الأكبر بعزف « بيتهوفن » فأبدى رغبته في استبقائه في بلاطه ببرلين ولكن « بيتهوفن » اعتذر . ولقد روى تلميذه « شرنى » أن « بيتهوفن » أشار الى ذلك في حديث له فقال : « هؤلاء أطفال مدللون

تبعيهم شدة تأثرهم بالموسيقى بدلا من أن تستفزهم قوتها . ذلك بأن «بيتهوفن» كان يعتقد أن مهمة الموسيقى ، أن توقد النار في نفوس الرجال وعاد «بيتهوفن» من رحلاته الى «فيينا» ولم تنل من نفسه رضاء .

وفي عام ١٧٩٥ كتب ثلاث ثلاثيات ، للبيانو ، والسكان والفيولنسل ، فبلغ فيها الذروة ، وأصبح بعدها في عداد الطبقة الأولى من المؤلفين ، وقد نشرها باسم عمله الأول (Opus 1) متنازلا في ذلك عن كل ماسبق له من الألحان في الماضي ناظراً إليها كأن لم تكن .

عزفت هذه الثلاثيات في قصر الأمير «ايشنوفسكى» وكان المدعوون نخبة من فطاحل الفنانين وعلية القوم ممن علت مداركهم الموسيقية ، وسمت ثقافتهم فيها . وكان «هايدن» حاضراً كذلك .

أعجب «هايدن» بهذه الثلاثيات غاية الإعجاب ، وامتدحها امتداحاً فائقاً ، ولكنه أظهر قلة ارتياحه لثالثتها ، ونصح لبتهوفن ألا ينشرها .

وكانت المقطوعة الثالثة التي لم ترق في نظر «هايدن» أكثر المقطوعات الثلاث نجاحاً وقبولاً في الحفلة . وهي تعتبر اليوم خير هذه الثلاثيات .

ترجح الظن في نفس «بيتهوفن» أن «هايدن» لا يريد له الخير ، وأنه سىء النية فيما يسدى إليه من النصح وإنما الحقد والحسد هما اللذان يملكان عليه ما يبديه من نقد وإرشاد .

كان بيتهوفن آثماً في هذا الظن — «إن بعض الظن إثم» —

فظل أستاذه وجار عليه ، لأن الحق يقرر في أنصع صفحاته إخلاص «هايدن» للفن ، وتقديره للفنانين أياً كانوا ، فإن كان قد أخطأ في تقدير بعض مبتكرات «بيتهوفن» فإنه يرجع ذلك ، ولا ريب ، إلى قلة إدراكه سمو المعاني التي كانت تخلق فيها تلك العبقرية الفنية ، ذلك بأن نتاجها كان فوق مستوى العصر فما كان بدعا أن يغيب عن الموسيقار الشيخ بعض النفحات الملهمة .

وفي عام ١٧٩٦ ظهرت لبتهوفن المقطوعة الأولى من نوع السوناتة ، وقد أسماها عمله الثاني (Opus 2) .

ومنذ عام ١٧٩٩ دخل «بيتهوفن» فيما يسمى بالدور الثاني من حياته ، ودخلت مؤلفاته في دور جديد أسمى ، تجلى فيه روح الألم وعبرت موسيقاه عما يلقاه في حياته من أسى . وكانت من باكورة مؤلفاته في هذا الدور السوناتة الحزنة (الباتيتيك Pathétique) تلك المقطوعة الرائعة الخالدة الملأى بأعمق التعبير عن العواطف والبطولة .

وفي ذلك العام أيضاً ظهرت له أولى مقطوعات «السنفوني» التي يستلزم أداؤها فرقة موسيقية كبيرة ، تلك هي «سنفوني دو ماجير» وتعرف الآن بالسنفوني الأولى لبتهوفن .

ارتقى بهذا النتاج إلى ذروة المجد ، وحلق به في سماء الخلود حتى بلغ مكانة «موتسارت»

ولحن قصيدة «أدليدا» للشاعر «متيسون» فبرز بها كل ما سبقها من الأغاني حتى أطلق عليها «أنشودة الأناشيد»

والحق إن الأدب الموسيقى لا يعرف قطعة غنائية وضعت لآلة البيانو يمكن أن توضع إلى جانب هذه الأنشودة في قوة التأثير ، وصدق التعبير عن الشعور .

كان الموسيقار « راشارت » وهو شيخ علقته كبرة السن ، أول من لحن قصائد « جيتا » لتكون أغنيات ، ونال بذلك سمو المكانة ، ونباهة الذكر . فلما ظهر تلحين « بيتهوفن » لقصيدة « أدليدا » غطى على ما كان لذلك الموسيقار من شهرة ، وانتحى بنتاجه زوايا النسيان . فقد تجاوز « بيتهوفن » في هذا التلحين الحد الذي كان يتصوره الناس ، أو يقع إلى خيالهم في ذلك العهد .

وعجيب أن تظل هذه القصيدة مهمة بعد تلحينها أكثر من عامين ، فلقد لحنها في عام ١٧٩٨ ولكنه لم ينشرها إلا في عام ١٨٠٠ ، ولم يرسلها إلى ناظمها الشاعر « ما تيسون » إلا في شهر أغسطس من ذلك العام رغم أن « بيتهوفن » أهدى تلحينها إليه .

وأرسل وقتئذ « بيتهوفن » إلى الشاعر خطاباً يقول فيه :
« أبعث اليك في هذا الكتاب بقطعة من تلحيني أغفلها النسيان لدى سنتين أو يزيد ، وأحسب أنه لم يقع إلى علمك شيء عنها قط ، وشد ما ينجلني ذلك ، وأرجو المذرة . ولا أدري كيف أهدى إليك شيئاً صادراً من أعماق قلبي ، حملتني عليه حرارة التقدير ، ثم لأرفعه اليك ، أو على الأقل أنبئك به ؟ قد يكون السبب في ذلك جهلي محل إقامتك أولاً . وقد يكون أيضاً حيائي ، وشعوري بأنني

تعجلت فأهديت اليك شيئاً قبل أن أثبت من أنه سيصادف منك قبولاً . بل إنى لأرسل اليك الآن هذه القصيدة وأنا لا أزال خائفاً وجلاً . أنت تعرف حق المعرفة أثر السنين في الفنان ، وكلما تقدمت به الأيام في تحصيل فنه ، واتسعت فيه خطاه قل رضاؤه عن نتاجه الأول . أصدق الظن أن يروك تلحيني لقصيدتك الرائعة « أدليدا » ، وأن يصادف من شاعريتك ارتياحاً يحفز على ابتداع قصيدة أخرى من طرازها . إذن فسأستجمع كل قواي لتصوير لحن موسيقى يساير روعة شعرك .

وأرجو أن تعتبر هذا الإهداء دليلاً على اعترافي بجميلك وتقديرى للسعادة الروحية التى ينقلنى اليها شعرك دائماً ، فى الماضى ، وفى المستقبل . . . »

شق نتاج « بيتهوفن » فى ذلك العام طريق المجد لتلك العبقرية المتألثة ، وكان لهذا النجاح الفنى أثر ملموس فى حالته المادية ، إذ أقبل الناشرون على كل ما يخرج منه من نتاج ، يتسابقون فى الحصول عليه ، ويتنافسون فى شرائه ، ويدفعون فيه ما يطلبه من أجر دون مساومة . ذلك فضلاً عما كان يلقاه من جماعة الأشراف والنبلاء من صدق المعونة ، وعظم البر ، فقد أمر الأمير « ليشنوفسكى » أن يصرف لـ « بيتهوفن » ٦٠٠ جولدن (حوالى ٥٠ جنيه) فى العام كرتب شرف إلى أن يجد له وظيفة ثابتة .

وكان « بيتهوفن » يشعر بعلو كعبه فى الفن ، ويحس سمو منزلته

فيه ، ويثق في متانة قوته ، وكفاية قدرته ، يتنبأ رفعة قدره ، وما ستكتبه له الأيام من تقدير العالم في سجل الخلود .

وقد جلى عن ذلك رسالة كتبها إلى صديق له في مدينة « بون » قال فيها :

« تلك البلاد الجميلة التي نيطت بها على تئامى وكانت أول أرض مس جلدى ترابها ، وأبصرت عيناى فيها أشعة الضياء لأول مرة ، لاتزال رائعة الجمال ، باهرة الحس ماثلة في ذهنى بأبهى مما تركته فيها . ولعل أسعد أوقات حياتى تلك الفرصة التي أحظى فيها برؤيتكم مرة أخرى وأتهج بتحية أبينا «الرين» . ولكن متى يكون هذا؟ ذلك ما لا أستطيع تحديده . غير أنى أستطيع أن أوكد لكم أنكم ستلقونى عظيما ، لا من حيث الفن والسمو فحسب ، بل ستجدونى إنسانا أحسن وأكمل . ولئن تحسنت أحوال وطنى ، لقد أضع فنى في خدمة قرائه . . . »

وكان من أحسن خلال « بيتهوفن » وأطيب صفاته ، عرفانه بالجميل ، وعدم نكران ما يسدى اليه من معروف . يشهد بذلك ما حدث من أنه بعد أن احتل الفرنسيون مدينة « بون » وقع أهلها فريسة للضنك والفاقة ، وأصابهم كثير من البؤس والشقاء ، وبخاصة أفراد فرقة البلاط ، وهم إخوان « بيتهوفن » وزملاؤه ، فقد انقطع عنهم مورد رزقهم ، ونضب معين دخلهم . ومن أولئك الموسيقار « ريس » صديق « بيتهوفن » الذي وقف إلى جانبه في ساعات شقائه يمدد بالعون والمال فكان في صداقته مثال الإخلاص والتفحية . كاد ولده

«ريس الصغير» يبلغ سن الرشد . وكان قد تلقى على والده القدر الكافي من دروس الموسيقى النظرية والعزف بالبيانو . وإذ أراد الوالد أن أن يستكمل ابنه ثقافته الموسيقية فقد بعث به أولا إلى « ميونخ » ثم إلى « فينا » .

في أواخر شهر مارس سنة ١٨٠٠ دخل على « بيتهوفن » في فينا شاب في السادسة عشرة من عمره ، وفي يده رسالة فضاها « بيتهوفن » فإذا بها من والد الشاب . كان « بيتهوفن » في تلك الآونة مشغولا بإنجاز « الأوراتوريو » الخالد « المسيح عند جبل الزيت » . فبعد أن أتى على الرسالة سراعاً خاطب الشاب قائلاً :

— لا أستطيع الآن الإجابة على هذه الرسالة ، وأبكنى أرجوك أن تكتب لوالدك أنني مانسيت ولن أنسى موت والدتي . وسيجد أبوك في ذلك الكفاية «

لم يحب ظن « ريس » في صديقه « بيتهوفن » . فلقد قام بنفسه على تعليم ولده العزف بالبيانو . وكان في ذلك غاية في جميل الرعاية ، وحسن المعاملة . إستمع إلى الشاب يصف ذلك فيقول :

— كان « بيتهوفن » معى على غير عادته ، غاية في الصبر والأناة ولقد كتبت إلى والدى أصف له الكثير من حسن رعايته ، وجميل صنيعه ، ومعاملته التى سارت على وتيرة واحدة ، نهاية في اللطف وغاية في الرقة ، ولم تتغير إلا فى القليل النادر جدا . تلك المعاملة التى تجلى فيها تعلقه بوالدى وحببه له . لقد كان يتركنى أكرر الشئ عشر مرات

وأكثر وكنت إذا أخطأت في طريقة العزف يتقاضى فإذا أخطأت في التعبير ، أو في طابع المقطوعة خرج عن حلمه واستشاط غضباً .

وفي الحق كانت معاملة « بيتهوفن » لتلميذه « ريس الصغير » معاملة الوالد لولده . حتى لقد كان يمدّه بالمال كلما بدت حاجته إليه . بل لقد ألحقه في ربيع العام التالي معلماً للموسيقى في بيت أحد أشراف الروس « بفيننا » « الجراف براويني »

فلما أقبل الصيف اصطحبت أسرة « براويني » معلم الموسيقى الشاب معها إلى « بادن » إحدى ضواحي « فينا » ومكان اصطياف الطبقة الراقية من أهلها . وإذا كان النبيل « براويني » شديد التعلق بالموسيقى والموسيقين فقد كان كثيراً ما يقيم في المساء حفلات يدعو إليها طائفة كبيرة من هواة الموسيقى وعشاقها . وكانوا جميعاً من أنصار « بيتهوفن » ومحبيه .

كان « ريس الصغير » يعزف في تلك الحفلات مقطوعات « بيتهوفن » تارة من النوتة وأخرى من ذاكرته .

وفي إحدى تلك الحفلات ، بعد أن فرغ « ريس » من عزفه عدة مقطوعات لبيتهوفن ، ارتجل مارشاً من مخيلته . سمعت ذلك إحدى النبيلات المتقدمات في السن وكانت شديدة الإعجاب ببيتهوفن ، لدرجة لا توصف ، وإذا اعتقدت أن هذا المارش الجديد لبيتهوفن ، فقد تأثرت به تأثراً بالغ الحد ، وأعجبت به كل الإعجاب .

وبعد من فرط سرورها به أن تضطر « ريس » إلى مجاراتها — حتى لا يسلم هذا السرور فتركها في اعتقادها .

وتصادف أن حضر « بيتهوفن » في اليوم التالي إلى بيت ذلك النبيل فقبول فيه بعاصفة من الإعجاب والإطراء — وبخاصة النبيلة المسنة التي بالغت في تهنئته بمارشه الجديد وابتداعه الرائع فيه . فلما ظهرت على « بيتهوفن » علامات الدهشة انتحى به « ريس » ناحية أوقفه فيها على جليلة الأمر . فحمله حبة الجم لتبليذه على السكوت والإغضاء طاب الجميع إلى « ريس » إعادة عزف هذا المارش فأخذ في عزفه . ولكنه كان في هذه الليلة أسوأ منه في الليلة السابقة فقد أوقعه في الارتباك قرب أستاذه منه ، وإنصاته له .

ولقد أشار « بيتهوفن » إلى ذلك في بعد في حديث له مع تلميذه « ريس » فقال :

— أرايت ؟ هؤلاء هم أكثر الناس معرفة بالموسيقى . وهم الذين يزعمون أن في استطاعتهم الحكم على كل نتاج موسيقى حكماً فنياً دقيقاً . إن المرء لا يحتاج إلا إلى أن ينسب النتاج إلى شخصية محبوبة ، فيفوز بالإعجاب والتعجيد »

وإذ كان « بيتهوفن » يميل إلى المعيشة الريفية فقد كان كثيراً ما يرحل إلى الخلاء لينعم بالهدوء ، ويتمتع بالراحة . وكان تلميذه « ريس » يضطر إلى اللحاق به لأخذ دروسه . وكانا بعد أن يتناولوا

طعام القصور معاً يخرجان للتجوال بين الحقول والنباتات فلا يعودان إلا قبيل الغروب . بعد أن يتناولوا بضع لقيات في مطعم متواضع في الطريق .

حدث مرة ، في أثناء تجوالهم ، أن سمع « ريس » صوت ناي لأحد الرعاة المتجولين في الغابة . وكان صوت الناي ينبيء عن سذاجة تلك الآلة المصنوعة من القصب . إنمّا كان عزف الراعى جيداً متقناً . نبه « ريس » أستاذه « « بيتهوفن » إلى جمال صوت الناي . أنصت « بيتهوفن » مصيخاً سمعه إلى مصدر الصوت ، ولكنه لم يسمع شيئاً . ظل ينصت قرابة نصف ساعة بغير طائل .

ولكى يتخلص التلميذ من هذا الموقف المؤثر ، ولكى لا يجرح عواطف أستاذه أسرع فتنى وجود صوت الناي ، وإن كان لا يزال عالياً مسموعاً ، فقال :

— إني كذلك ، يا أستاذى لم أعد أسمع شيئاً .

لم تكن هذه أول مرة لاحظ فيها « ريس » ثقل حاسة سمع أستاذه ، ولكنه لم يشأ أن يقفه على علمه بهذا المصاب ولو اضطر في سبيل ذلك للكذب . فتابع سيرهما في صمت رهيب .

لم يكن « بيتهوفن » يجهل هذه الحقيقة أيضاً ، فقد كان يعرفها ، إنمّا كان يحاول إخفاءها . فقد لاحظ منذ عام ١٧٩٧ تقريباً ضعفاً يتزايد في حاسة سمعه ، تلك الحاسة التى هى أعز ما يملكه الموسيقى حتى كان يقول في أول شعوره بهذا الموضع « إني أسمع أزيزاً وصفيراً » .

وكان الناس إذا خاطبوه ولم يجيبهم نسبوا ذلك إلى تشتت فكره ،
وانشغال باله . أما هو فكان إذا تحدث إليه بعضهم في صوت طبيعي
لا يسمعه شق عليه ذلك ، فإن تبين أن المتكلم اليه يرفع صوته لسمعه
زاد غضبه ، واشتد تأثره

إذن فقد اجتهد « بيتهوفن » في أن يكتم هذا الأمر عن جميع
الناس لأنه كان يخجل منه . ولكن المصيبة تفاقمت وفدح الخطب .
أصبح « بيتهوفن » إذا ذهب إلى المسرح لا بد أن يجلس في
الصف الأول حتى يتمكن من سماع الممثلين ، وأصوات الموسيقى . وكان
يتعذر عليه سماع أعلى الأصوات وأحد النغمات إذا جلس متأخراً .
اعتزل « بيتهوفن » الناس ، وزعم إلى البعد عن الجماعات حتى
لا يشعر أحد بصممه . ولقد تردد على كثير من الأطباء واتبع مشورتهم ،
وعمل بما نصحوا له به ، فلم يجده ذلك فكف عن الانصياع لهم وأهمل
مشورتهم .

وقد سبب له ذلك الصمم من البؤس ما جعله يفكر في التخلص
من حياته . ولعل ذلك يتجلى في الرسالة التالية التي كتبها في ٢٧ يونيه
سنة ١٨٠١ إلى صديقه « فيجيلر Wegeler » في مدينة « بون » يقول :
« منذ ثلاثة أعوام وأنا أحس اطراداً في ضعف سمعي . إنني
لأسمع في أذني أزيزاً وصفيراً لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً . أستطيع أن أقول
لك إنني تعس في حياتي ، وقد حاولت طوال السنتين الماضيتين أن
أبتاعد عن المجالس ، لأنني لا أريد أن يعرف الناس عني أذى أصم . ولو

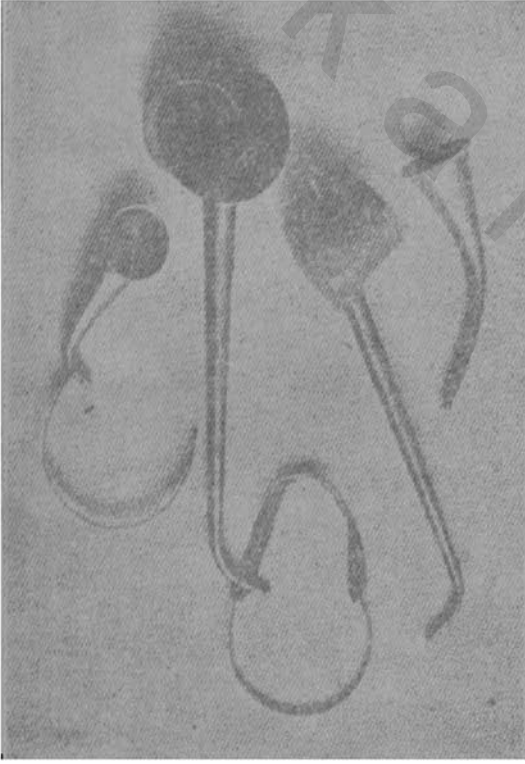
كانت لى مهنة أخرى خلف المصاب ، وهان على الأمر ، ولكن ،
ومهنى الموسيقى فإن المصاب أسوأ ما يتصور

وكتب « بيتهوفن » بعد ذلك رسالة إلى صديق فى نوفمبر
سنة ١٨٠١ يقول فيها ، لقد خف ما كان يحسه من الأزيز والصفير فى
أذنيه ولكن حاسة السمع أصبحت أسوأ مما كانت عليه .

ولقد كان « بيتهوفن »
قوى الايمان بالله ، شديد الاعتقاد
بالقضاء والقدر موقناً بالبعث
والنشور .

كان من أحب الكتب اليه
كتاب فلسفى اسمه « تأملات فى
بدائع الخالق » استعاد قراءته
أكثر من مرة وخط بقلمه تحت
جمل منه كانت موضع اهتمامه
بصفة خاصة ننقل منها ما يأتى :

« اللهم إنى لا أرجو إلا أن صورة الأدوات التى كان يستعملها لتقوية السمع
تقومنى . » وجملة أخرى وردت على لسان حال الشمس فى باب تأملات
خلقها ، وإنها مصدر الخيرات : « فى المكان الذى أشرق عليه أوزع الخيرات
بين الناس ، تلك الخيرات التى استمدها من الله أوزعها على المخلوقات جميعاً



بالقسطاس في غير أنانية يعمدون منها وينتفعون ، وفي ذلك درس لكل امرئ ، فيه عزاء ، وقوة ، وغذاء .

وجملة أخرى على لسان الخالق جل وعلا : « إن أكرمكم عندى أكثركم لى طاعة ، وليست المخلوقات إلا آلات أتصرف فى مصيرها كما أشاء »

وقد يحلى عن شديد إيمان يتهوفن واعتقاده فى البعث ، ورد فى رسالة إلى أحد أصدقائه يشكو فيها صدمته ويصور فيها فداحة مصابه فيقول :

« لو لم أكن أخاف عقاب الآخرة لتخلصت من حياتى بنفسى ، ولأقدمت على الانتحار بإرادتى »

إذن فقد كانت هذه المصيبة هى الداهية الدهيئة التى أصيب بها هذا الموسيقار الكبير ، بل كانت هى السبب فى عزائه عن العالم شيئاً فشيئاً حتى حجب عنه ، ذلك بأن ضعف حاسة سمعه انتهى به إلى الصمم الكامل على نحو ما سنبينه فيما بعد .